الشعر الوصفي

بينما كنت اتصفح المجلد الثامن والعشرين من المقتطف قرأت في صفحة ٤٣٨ منهُ اقتراحهُ على ابناء هذا العصر ان يحذوا حذو الثعالبي وابي تمام بجمع ما يستحق الجمع والحفظ من اشعار الذين نبغوا بعد زمانهما الى الآن ولو جاء ذلك في مجلدات. ويجب ان لا يقتصروا على ما اقتصرا عليهِ من الابواب بل ان يذكروا ايضاً ما يدخل في باب الوصف الطبيعي كوصف المدن والمباني والبلدان والرياض والحيوان والنبات والشمس والقمر والغيم والمطر ونحو ذلك ... الخ" وقد جمعت كتاباً سميتهُ (تحفة القريحة في القطعات البليغة الفصيحة) وقسمتهُ الى جزئين احدهما في الشعر والشاعر والفنون الشعرية على اسلوب جديد وابحاث دقيقة في المطالعة والحفظ والحسن والخيال وتوليد المعاني الخ يقع في نحو ثلاثمائة صفحة بقطع كبير. وثانيهما في المقطعات والقصائد مبوبة على اسلوب جديد يوافق اقتراح المقتطف وينقسم الى وصف العوالم العلوية كالسماء واديمها والسيارات وتوابعها كالقمر سواء كان بدراً او هلالاً والثوابت والشمس ثم الظواهر الجوية كالاقتران والكسوف والخسوف والشهاب والزوبعة والرجوم والمذنبات والفجر والشفق وقوس قزح والبرق والرعد والغيم والمطر والثلج والآل والسراب والظل والنسيم والهواء. ثم وصف العوالم السفلية كالانسان وما يتعلق بهِ والحيوانات على اختلافها والنباتات واشكالها ووصف الرياض والاثمار والازهار ثم وصف الجمادات كالاحجار والاتربة والقدران والقوارات والبرك والشلالات والخلجان ثم وصف العلوم والفنون والاكتشافات والاختراعات والمدن وما يتصل بذلك مما ملأ نحو الف ومائتي صفحة بقطع كبير. ولقد مثلتهُ بالطبع منذ سنوات ونشرت عنهُ مقالة سميتها (لمحة في الشعر والعصر) جعلتها كمقدمة او فذلكة لمواضيعهِ وطبعتها سنة ١٨٩٨ م ولكن كساد بضاعة الادب يؤخرني عن طبعهِ ولاسيما انهُ يقتضي نفقات كثيرة لكبر حجمهِ ولقد رأيت الآن ان انتخب من بعض مواضيعهِ مثالاً يدل على ما تضمنهُ من الاساليب فاقتصرت على انتخاب فصل من القسم الثاني منهُ وهو في وصف الثالث من ذلك في وصف الرياض قول بعضهم:

روضٌ بهِ اشياء ليست في سواهُ تؤلفُ
فمن المزار ترنمٌ ومن القضيب تقصفُ
ومن النسيم تلطفٌ ومن الغدير تعطفُ

وقول الآخر:

والروض قد راق العيون بحلةٍ قد حاكها لحنابه آثارُ
وعلى غصون الدوح خضر غلائلٍ والزهرُ في اكمامه ازرارُ

وقول ابن الأزرق:

تأملتُ من حسن الربيع نضارةً وقد غرّدت فوق الغصون البلابلُ
حكت في غصون الدوح قسًّا فصاحةً لنعلم أن النبت في الروض بالقلُ

وقول احمد الحلبي الصنوبري:

خجل الوردُ حين لاحظهُ النرجسُ من حسنهِ وغار البهارُ
نعلت ذاك حمرةٌ وعلت ذا صفرةٌ واعترى البهار اصفرارُ
وغدا الاقحوان يضحك شجيًا عن ثنايا لثاتهنَّ نضارُ
ثم نمّ النهار واستتر السرسرُ لما اذيعت الاسرارُ
عندها ابرز الشقيقُ خدودًا صار فيها من لطمهِ آثارُ
سكبت فوقها دموعٌ من الطلّ كما تسكب الدموع الغزارُ
فاكتسى البنفسج الغضّ اثواب حدادٍ دعاها الاصطبارُ
واغرّ السقام بالياسمين الغضّ حتى آذى به الإضرارُ

وقول ابي الفضل الميكالي:

روضٌ يروض هموم قلبي حسنهُ فيهِ نكأس اللهو اي مساغِ
إن تنثني نفحاتُ ريحانٍ بهِ حيت بمثل سلاسل الاصداغِ

وقول بعضهم:

في روضة ابدت ثغورُ زهورها لما بكى فيها الغمامُ تبسما
مدّ الربيع على الخمائل نورهُ فيها فاصبح كالخيام معلما
تبدو الاقاحي مثل ثغر اشنب أضحى الحبُّ به كثيبًا مغرما
وعيونُ نرجسها كأعين غادةٍ ترنو فتعربي بالملاحظ اسهما
وكذلك المنثورُ منثورٌ بها لما رأى ورد الخدود منظما
والطير تصدح في فروع قنونها سحرًا فتوقظ بالمديل النوّما

وقول الآخر: ورياض تختال منها غصونٌ في بروده من زهرها وعقودِ
تكأن الارواح فيها غوانٍ تتبارى زهوًا بحسن القدودِ

وكأن الاطيار فيها قيانٌ تغنى في كلّ عودٍ بعودِ
وكأن الازهار في حومة الروض سيوفٌ نُلَّ تحت بنودِ

وقول ابي الوليد اسماعيل بن حبيب :

فالارض في بزّة من يانع الزهرِ تزري اذا قستها بالوشي والحبرِ
قد احكمتها اكفّ المزن واكفةً وطرّزتها بما تهمي من الدررِ
تبرّجت فسبت منا العيون هوًى وفتنةً بعد طول الستر والخفرِ

وقول علاء الدين بن غانم

فللهِ روضٌ زرتهُ متنزّهًا فأبدى لعيني حسن مرأى بلاديا
غدا الغصن فيهِ راقصًا ونسيمهُ يكرُّ على من زارهُ متعديا
ترجلت الاشجار والماء خرَّدٌ لسيم الصبا انحى بهِ متمشيا
تغنّي لديهِ الوُرق والغصن راقصٌ فيعرق وجه الارض من كثرة الحيا

وقول يوسف بن لؤلؤ :

باكر الى الروضة تستجلها تنثرها في الصبح بسّامُ
والنرجس الغضّ اعتراهُ الحيا فغضّ طرفًا فيهِ اسقامُ
وبلبل الدوح فصيحٌ على الايكة والشحرورُ متمامُ
ونسمة الصبح على ضعفها لها بنا مرٌّ ولمامُ
فعاطني العبياء مشمولةً صفراء فالواشون نوّامُ
واكتم احاديث الهوى بيننا في خلال الروض نمّامُ

وقول ابن الوردي يصف وادي الباب او باب براعة في نواحي حلب :

ان وادي الباب قد ذكّرني جنّة المأوى فللهِ الطيبْ
فيهِ روح يعجب الشمس اذا قال لنسمة جوزي بأدبْ
طيرهُ معربةٌ في لحنها تُطرب الحيَّ كما تحيي الطربْ
موجهُ مبتسمٌ عما بكت سحبٌ في ذيلها الطيب انسحبْ
فيهِ روضاتٌ اذا صبّ بها مثل ما اصبح فيها الملتصبْ
نهرهُ إن قابل الشمس ترى فضةً بيضاء في نهر ذهبْ

ومن وصف الازهار قول مجد الدين الاربلي وقيل انها لجوبان القواس في الورد :

أصغي الى قول الوشاة بجهلهِ مستفهمًا عنهُ بغير ملالِ

لتلتقطي زهرات ورد خديكم من بين شوك ملامة العذال

وقول ابي الفتح البستي فيه ايضاً :

لا يغرّنك أنني لين اللمس فعزمي اذا اكتفيتُ حُسامُ
انا كالورد فيه راحةُ نوم ثم فيه لآخرين زُكامُ

وقول بعضهم فيه ايضاً :

ارى الورد عند الصبح قد سدّ لي فماً يشير الى التقبيل في حالة اللمس
وبعد زوال الشمس اغلاقُ وجنةً وقد اثّرت في وسطها قبلة الشمس

وقول الآخر في النرجس :

وقضب زمرّد تسمر عليها عيونٌ لم تذق طعم الغماض
توهمت الغمامَ لها رقيباً فنكست الرؤوس الى الرياض

وقول جمال الدين بن مطروح في الشقائق والبهار مشبهاً :

لما ولينا الوداع وصار ما كنّا نظنّ من النوى تحقيقا
نثروا على ورق الشقائق لؤلؤاً وشذرتُ من ورق البهار عقيقا

وقول الآخر في الياسمين :

والأرض تبسم عن نَوْر رياضها والافق يسفرُ تارة ويقطبُ
وكأن مخضرّ الرياض ملاءةٌ والياسمين لها طرازٌ مذهبُ

وقول مهيار الديلمي في الخزامى :

بكر العارض يحدوهُ الشمال فسقاكِ الربيُّ يا دار إماما
ونشت فيك أرواح الصبا يتأرجن بأنفاس الخزامى

وقول ابن الساعاتي في الاقحوان والشقيق والنرجس :

ما الجوُّ الاّ عنبرٌ والدرح الاّ جوهرٌ والروض الاّ سندس
سفرت شقائقها فهمّ الاقحوان بثمّها فرنا اليه النرجسُ
فكأن ذا خدٌّ وذا ثغر يحاولهُ وذا أبداً عيونٌ تحرسُ

وقول بعضهم في الآس (الريحان) وتفضيله على الورد :

محاسنكم كالورد لوناً وريحةً وعمراً قليل تنقضي مدة الورد
وحبي لكم كالآس في اللون والبقا مقيم على الحالين في الحرّ والبرد

ومن وصف الاثمار قول ابن المعتز في الرمان :

يارب بيت زرتهُ فكأنما قد ضمني من ضيقهِ سجنُ
لم يحسن الزمانُ جمع أحبتي في نشرة الاَّ كما نحنُ

وقولهِ ايضاً في التاريخ :

وكأنما التاريخ في اغصانهِ من خالص الذهب الذي لم يخلطِ
كرةٌ رماها الموجان الى الهوا فتعلقت في جوّهِ لم تسقطِ

وقول الآخر في الأترج

جسم لجين قميصهُ ذهبٌ مركّبٌ في بديع تركيبِ
فيهِ لمن شمّهُ وابصرهُ لون محبٍّ وريح محبوبِ

وقول ابن الشتاق في عنب اسود مغلّف بورق اخضر مرتجلاً :

عنب تطلّع من حشى ورق لنا صبغت غلائل جلدهِ بالإثمدِ
فكأنهُ من بينهنّ كواكب كسفت فلاحت في سماء زبرجدِ

وقول عبد الرحمن المشهور بابن الحموي في بطيخة مقطّعة وفيهِ تشبيه سبعة بسبعة

يقطّع بالكبين بطيخة ضحًى على طبقٍ في مجلس لا صاحبهُ
كبدرٍ ببرقٍ قدّ شمس اهلّةٍ لدى هالةٍ في الأفق بين كواكبهُ

وقول بعضهم في الباذنجان :

ومستحسن عند الطعام مدحرج غذاهُ غير الماء في كلّ بستانِ
تطلّع في اقماعهِ فكأنهُ قلوب نعاجٍ في مخاليب عقبانِ

وقول ابن اسرائيل في تفاحة :

حمراء في صورة المريخ خاطرةٌ يزري بنشر الحيا نشرُها العطرُ
اتى بها قائلي نحوي فهل احدٌ قبلي تمشّى اليهِ الغصنُ والثمرُ

وقول ابن المعتز في الجزر :

انظر الى الجزر الذي يحكي لنا لعب الخريق
كذبيقٍ من سندسٍ وبها نصابٌ من عقيق

ولهُ ايضاً في القثاء :

انظر اليها انابيباً منضّدة من الزمرد خضراً ما لها ورقُ
اذا قلبت اسمهُ بانت ملاحظهُ وصار مقلوبهُ اني بكم اثقُ

عيسى اسكندر المعلوف